فلسطين عروس عروبتكم

مهاتفة مع والد الشهيدة
آيات الأخرس

obeikandl.com

obeikandl.com

هل كان الألم سيكون أكثر لو أنهم شقوا صدري وفتحوا قلبي ووضعوا جمرة نار فيه؟

هل كان الألم سيكون أكثر؟ ..

على الطرف الآخر من الهاتف كان الشيخ محمد الأخرس .. والد الشهيدة آيات .. واتي يرفض القردة والخنازير تسليم رفاتها الطاهر إليه حتى الآن ..

على الطرف الآخر كان ..

وكنت أحمل على كاهلي مليارا وربع مليار عار ..

كنت أسأله عن حاله وكأنني لا أعرف ..

وكأننا لا نعرف ..

وكأنكم لا تعرفون ..

وكان الخزي يحاصرني ..

مليار وربع مليار خزي ..

وكان الرجل يجيب:

- الحمد لله .. صابرون صامدون ..

وبعد صمت دوّى سكونه في أذنيّ أعلى من أي صوت آخر جاءتني كلماته ..

هل قلت جاءتني كلماته؟

كيف إذن يكون مجيء النار المتقدة بلهيب الجمر المتأجج ..

هل قلت جاءت كلماته؟ ..

كيف إذن يكون مجيء صوت انطلاق رصاصة عندما يطرق أزيزها أذنيك؟ ..

نعم .. صوت رصاصة ..

لكنها ليست أي رصاصة ..

بل بالذات تلك الرصاصة التي تخترق جسدك أنت كيف يكون دويها في أذنيك

obeikandl.com

أنت؟

هل قلت كلماته .. ؟ ..

نعم .. كانت كلماته ..

وكان يقول:

- كانوا هنا منذ الثالثة صباحا حتى الحادية عشرة ظهرا ..

وسألته كأنني لا أعرف، وكأننا لا نعرف، وكأنكم لا تعرفون يا مليارا وربع مليار عجز ..

سألته:

- من هم؟! ..

وجاءتني كلماته:

- الصهاينة .. كانوا هنا .. قلبوا كل شيء في البيت .. وعدا الإهانات فقد اعتقلوا شقيقها الأكبر والأوسط .. قبل الفجر جاءوا .. وكانت مكبرات الصوت تسبقهم: «آل آيات الأخرس: محظور عليهم التجول» .. وكانوا يريدون هدم البيت .. وربما يفعلون ..

يا الله يا الله يا الله .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة ..

لم أكن أنا من يتكلم ..

كان هو:

- أربع دبابات ومدرعتان تحاصر المنزل ..

كان هو الذي تكلم ..

وكنت أنا الذي أسمع الدوي وأسمع الهدير وأسمع الأبواق ..

وكان يحاصرني مليار وربع مليار عار ..

ومليار وربع مليار خزي ..

ومليار وربع مليار عجز ..

وطال الصمت ..

طال وثقل على القلب ..

واشتعل القلب ..

كأنما شقوا صدري وفتحوا قلبي ووضعوا جمرة نار فيه .. جمر نار فيه .. مجمرة نار فيه ..

حطّ على كاهلي حمل الصمت الثقيل فناء به ولم يكن لديّ من سبيل إلا أن أقطع دويّ الصمت بصمت الكلام ..

نعم .. لم يكن لديّ من سبيل إلا أن أقطع دويّ الصمت بصمت الكلام ..

ليس في العبارة خطأ ..

فقد ثقل عليّ الصمت المشحون بالمعنى .. الصمت الصارخ بالمعنى .. ولم يكن لديّ من سبيل إلا أن أقطع توتر هذا الصمت الحاد كحد السيف حين راح بلا صوت يطعن ضمائرنا فتنزف وتنزف وتنزف ولم يكن لديّ من سبيل إلا أن أتفوه بكلام لا معنى له .. لا غاية منه إلا الهروب من الصمت المشحون الحاد ..

نعم ..

كان علي أن أهرب من الصمت الصارخ إلى الكلام الأخرس ..

قلت لوالد آيات الأخرس:

- هل أستطيع أن أفعل أي شيء؟ ..

كيف لم يقتلني العار قبل أن أنطق بها؟ .. ليس عارا واحدا بل مليارا وربع مليار عار ..

ومليارا وربع مليار خزي ..

ومليارا وربع مليار عجز ..

هبط الصمت ساد الصمت خيّم الصمت أنّ الصمت ناء الصمت ناح الصمت فاض الصمت هتف الصمت صرخ اصمت نطق الصمت بلا صوت: «اخسأ» .. دائما كنت تستطيع لكنك لم تفعل .. كنتم تستطيعون فلم تفعلوا .. وردد فراغ الصمت دوي الكلام فإذا بصدى كلمة « اخسأ» يتكاثر ويتكاثر ويتكاثر حتى بلغ مليارا وربع مليار: « اخسأ» ... فلكل واحد ممن لم يفعلوا شيئا كلمة: اخسأ» ..

اخسأ .. اخسأ .. اخسأ ..

لو أنهم شقوا صدري وفتحوا قلبي ووضعوا جمرة فيه؟

هل كان الألم سيكون أكثر؟ ..

***

- ادعوا لنا ..

كانت هذه آخر كلمة في المهاتفة ..

كتمت الصرخة:

- ولا هذه أيضا يا أبا آيات الأخرس .. فمثلنا لا يستجاب لهم دعاء ..

وضعت المسماع وأنا أتخيل أن ألسنة لهب الجمر المتأجج في قلبي ستمتد إلى المسماع فينصهر ..

***

حتى كلمة التقريع والتأنيب التي ظللنا خمسة قرون نبكت بها أنفسنا لم يعد من حقنا أن نقولها:

«ابكوا كالنساء ملكا لم تحافظوا عليه كالرجال» ..

لم يعد من حقنا أن نقولها ..

فآيات الأخرس كانت امرأة ..

لم تجلس لتبكي بل ذهبت تجاهد وتستشهد وجلسنا نحن القواعد نجاهد بالعويل والدموع والألم لا ينتظر منا أبوها إلا دعاء يعلم ونعلم أنه لن يستجاب ..

***

obeikandl.com

كان سمعي قد تدنس بالأزيز والهدير والصوت العبري ..

وهو دنس احترت كيف أتطهر منه ..

وسط الدنس رحت أقول لنفسي أن ما يحدث الآن مع أسرة الشهيدة آيات الأخرس هو خطة مرسومة للتنكيل بأسر الشهداء كي يجعلوا كل راغب في الاستشهاد يفكر ألف مرة فيما سيحيق بأسرته بعد استشهاده ..

أبناء القردة والخنازير يحاولون تدمير الجذور بعد أن قطعوا الفروع وقطفوا الثمر ..

وهي خطة لا يواجهها المليار وربع المليار إلا بصمت العار وعار الصمت وخزي العجز وعجز الخزي ..

***

عام ٦٧ هزمنا يا آيات ..

وخدعنا محمد حسنين هيكل .. أو لعله كان – وما يزال- مخدوعا هو الآخر عندما قال – ربما ليخفف وطأة العار والخزي- أن طائراتنا لو لم تدمر على الأرض لدمرت في الفضاء خلال أيام قليلة ولما اختلفت النتيجة ..

كان يحسبها طائرة لطائرة وتدريبا لتدريب وصاروخا لصاروخ وقنبلة لقنبلة ودبابة لدبابة ..

لم يحسبها يا آيات يا حبيبة القلب عقيدة لعقيدة ..

لم يحسبها يا آيات لو أن المليون مجند – أو حتى نصف المليون- في سيناء والجولان والضفة، حتى بعد تدمير كل الطائرات ونسف كل الدبابات، لو أنهم حاربوا كما حرب أهلك يا آيات في جنين ..

وكما حاربت أنت نفسك يا آيات ..

ما يدميني الآن يا آيات .. ما يعييني .. ما يقهرني .. ما يخزيني أن أقل القليل من حكامنا كان جديرا بأن يقطف يا حبيبة القلب ثمرة استشهادك.

الكلب الشرس المجرم شارون لعب لعبة بالغة الخطورة .. كان كلاعب ألعاب خطرة يسير في سيرك على حبل مشدود .. وكانت أقل حركة تقوم بها دولنا أو

جيوشنا كفيلة بإسقاطه ليسقط إلى الأبد خيار الغطرسة والعنف .. وليبدأ العد التنازلي لنهاية إسرائيل ..

ما يدميني يا آيات أن دولنا وحكومتنا لم تقف على الحياد .. بل كانت تنصر شارون وتناصره .. أما جيوشنا فقد كانت تحمي حدود إسرائيل كي يتفرغ جيشها لكم ..

***

ذلك ما يشعل النار في قلبي يا آيات .. ويا أبا آيات ..

فهل ..

هل كان الألم سيكون أكثر لو أنهم شقوا صدري وفتحوا قلبي ووضعوا جمرة فيه؟

هل كان الألم سيكون أكثر؟؟؟!!!

obeikandl.com